الأم ، ولا يريد أن يكون مقيداً لأنه حرّ ؟

أنظر الى هذا الشرطى فى هذا الشارع يضرب مقبلاً ليدبر ومدبراً ليقبل ، وقد ألبسته الحكومة ثياباً يتميز بها ، وهى تتكلم لغة غير لغة الثياب وكأنها تقول : أيها الناس إن ههنا الانسان الذى هو قانون دائماً ، والذى هو قوة أبداً ، والذى هو سجن حيناً ، والذى هو الموت إذا اقتضى الحال

أتحسب يا بنى هذا الشرطى قائماً فى هذا الشارع لجدران هذه المنازل ؟ كلا يا بنى . إنه واقفٌ أيضاً فى الارادة الانسانية وفى الحسّ البشرى وفى العاطفة الحية . فكيف لا يمحوه المجددون مع أنه فى ذاته ارغامٌ بمعنى ، وإكراه بمعنى غيره ، وقيد فى حالة ، وبلاءٌ فى حالة أخرى ؟

لكنه ارغامٌ ليقع به التيسير ، وإكراه لتتطلق به الرغبة ، وقيدٌ لتتمجد به الحرية ؛ وكان هو نفسه بلاءً من ناحية ليكون هو نفسُه عِصمةً من الناحية التى تقابلها

يابنى ! كل دين صالح ، وكل فضيلة كريمة ، وكل خلق طيب ، كل شىء من ذلك إنما هو على طريق المصالح الانسانية كهذا الشرطى بعينه ؛ فاما تخريبُ العالم أيها المجددون وإما تخريب مذهبكم . . . .

* * *

قال العجوز (ن) : أنبحث عما تتسلّط به أم نبحث عما يتسلط علينا . وهل نريد أن تكون غرائزنا أقوى منا وأشد ، أو نكون نحن أشد منها وأقوى ؟ هذه هى المسئلة لا مسئلة الجديد والقديم

فان لم يكن هناك المثل الأعلى الذى يعظم بنا ونعظم به ، فَسَدَ الحسُّ وفسدت الحياة . وكل الأديان الصحيحة والأخلاق الفاضلة إن هى إلا وسائل هذا المثل الأعلى للسمو بالحياة فى آمالها وغاياتها عن الحياة نفسها فى وقائعها ومعانيها

* * *

قال المحدّث : ورأيتنى بين العجوزين كأنى بين نابين ؛ ولم أكن مجدداً على مذهب ابليس الذى ردّ على الله والملائكة وظن لحمقه أن قوة المنطق تغير ما لا يتغير . فسكتُّ حتى إذا فرغا من هذه الفلسفة قلت : والرحلة إلى سنة ١٨٩٥ ؟

(لها بقية — طنطا) مصطفى صادق الرافعى

تجـــربة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

ماذا ترى يصنع رجل يعشق للمرة الأولى فى حياة صاخبة مضطربة ، ولكنها على كثرة ماجرب فيها خلت من الحب ونجت من زلزلته للنفس ؟ ؟

عن هذا كان يسأل « ميم » — وحسبنا من اسمه حرفٌ واحد — وهو جالس إلى مكتبه ، والفتاة التى يحبها قبالته على الشرفة . والجديد من الأمر يتطلب جديداً من التصرف والتدبير ، ولو كانت له خبرة بالحب ، أو سبق له به عهد ، لقاس حاضره على ماضيه ، وأجراه فى مجاريه . وغريب أن يتقضى شبابه وهو فارغ القلب ، وأن يدركه الحب ويعمر فؤاده بعد أن شارف الكهولة ووقف على بابها ، وأخذ الأبيض يختلط بالأسود ، وبدأ الزمن يرسم خطوطه ! ! وإن كان هو لا يحس شيئاً من ذلك ولا يباليه ، ولا يعرف إلا أنه ما زال فى عنفوان الفتوة

وألقى القلم واضطجع وقال يناجى نفسه ، وهو يضحك ساخراً : « هل أصنع كما يصنعون فى هذه الروايات الكثيرة التى قرأتها ؟ وعلى ذكر ذلك — ماذا ترى أبطال هذه الروايات يصنعون فى حالات كهذه ؟ لقد نسيت والله : فكأنى ما قرأتها ولا وقعت عينى عليها . . . وهبنى كنت أذكر ذلك فهل يصح فى دنيا الحقيقة ما يصف الخيال ؟ »

واستطرد من هذا إلى القول بأن الروايات ليست — ولا يمكن أن تكون — خيالاً بحتاً ، وشيئاً يخلقه الانسان من لا شىء ، ولا يحور فيه إلى أصل من حقائق الحياة ، وأنكر قدرة الانسان على هذا الخلق ، وذهب إلى أن كل ما يسعه هو أن يلفق القصة من جملة ما شهد وجرب وسمع ، وأن يكوّن الشخصيات من أشتات ما عرف ، فليست القصص خيالاً ، ولا ما تصفه محالاً ، وإذن يكون تقليدها ميسوراً . . . أودع كونه ميسوراً أو غير ميسور ، وقل إنه لا يكون شططاً

« ولكن القصص يعنى فيها واضعها بترتيب الأحوال والمواقف على النحو الذى يؤثره هو ، والذى يراه أوفق لغايته ، ومن عسى يرتب لى دنياى كما يرتب مؤلف القصة دنيا أبطاله ؟ ؟

أم أستشير صديقاً مجرباً ؟ ؟ ؟ ولكن هذا مخجل ! ! ثم إن العبرة بنوع استجابة الفرد لوقع الحياة فى نفسه ؛ والاستجابة تختلف باختلاف الأفراد . والذى يفعله إنسان ما ، فى موقف ما ، ليس من الحتم — ولا من المعقول — أن يفعله كل إنسان فى الموقف عينه

فالاستشارات عبث ولا خير فيها ، ولا جدوى منها إلا الفضيحة . . . الفضيحة ؟ ؟ . نعم . أليس فضيحة أن تفتح قلبك لمخلوق غيرك ، وأن تبيحه سرك ، وتكشف له عن ضعفك ، وتدع عينه ترى مقاتلك ؟ ؟ ولكن هل معنى هذا أن الحب ضعف ؟ ؟ نعم . لأن فيه إفناء شخصية فى أخرى — الى حد ما على الأقل — ولم أكن هكذا قبل أن أبتلى بهذا الحب . وانى الآن لأرى حياتى كلها رهناً بمخلوق آخر لا أعرفه ولا يعرفنى . . . فكيف لا يكون هذا ضعفاً ؟ ؟

وعلى ذكر ذلك من تكون هذه المحبوبة التى غيرتنى وأورثتنى هذه الهواجس والوساوس ؟ ؟ . وجعلت من نفسها المجهولة قطباً تدور عليه خواطرى جميعاً فى اليقظة والمنام ؟ . . .

واستغرب من نفسه أنه لا يعرفها ، وأنه مع ذلك لا يعنى بسواها ، فى حى يعرف من إحصاء البوليس أن فيه مائتى قهوة ومائة وعشرين ألف نفس ، أى دائرتين انتخابيتين . « ولو مات أهل الحى لما حزن عليهم ، ولا أسى لهم ، ولا أحس نقصاً أو خسارة ، ولا أسف إلا على خلو الحى وخرابه وقعوده هو فيه وحده على تله ! ولكنه لو علم أن هذه الفتاة جرح أصبعها أو أصابها زكام ، أو وعك ، لبات مسهد القلب كاسف البال ، بل لاسودت الدنيا فى وجهه — ومع ذلك لا يعرفها ! ! لا اسمها . . ولا دينها . . ولا شيئاً عن قومها . . . وكل ما يعرف هو أنه يراها من نافذة غرفته وهو جالس الى مكتبه يقرأ أو يكتب . . . وأنه ألف أن يبصرها ، وصار على الأيام يطيل النظر إليها وهى واقفة على الشرفة العالية ، حتى اعتاد أن يراها على الأيام ، وحتى صارت نفسه تستوحش إذا دخلت أو غابت . وجعل يلاحظها بعد ذلك فادهشه منها أنها لا تكاد تغادر بيتها ، فما رآها خارجة إلا مرة واحدة فى شهور طويلة — مع أنها فقد كانت تلك أمها بلا شك — وهى مع ذلك من السافرات ! ! وزاد دهشته أنه كان يراها فى الأغلب جالسة فى الشرفة وفى يدها كتاب ... كتاب لا مجلة !! . ترى أى كتاب أو كتب تقرأ ؟ ؟ . لا شك أنها روايات . . وهل للفتيات صبر على غير ذلك ؟ ؟ . وللسن حكمها ... وسنها الصغيرة تغريم ولا شك بايثار القصص والروايات لأن حياتها جديدة فهى تريد أن تعرفها معرفتها ؛ وتظن أن الروايات أخصر الطرق وأوجزها الى هذه المعرفة . . . ثم إن الروايات تصف كل هو ما هو حبيب الى الشباب وقريب من هواه

وصار يأنس بمنظرها ، ويرتاح إذا بدت لناظره ، ويشعر بالفراغ حوله — وفى نفسه — إذا خلا مكانها ، أو لم تظهر على الشرفة أو من النافذة . وأدهى من ذلك أنه صار يحس من نفسه العجز عن العمل والتفكير إذا لم تأخذها عينه فى محلها المألوف من الشرفة

واستحيا أن يسأل عنها جارا ، أو خادما ، أو أحداً من الناس — وماذا عسى أن يقول لهؤلاء ؟ ... وبأى شىء يسوغ السؤال ؟ ؟

وفرك عينيه بأصابعه ، وهو يدير هذا كله فى نفسه ، ثم أطبق جفونه وراح يحاول أن يحضرها لذهنه ، كما تبدو له من النافذة أو الشرفة المألوفة ، . . فلم يجد عناء فى ذلك ، فقد كانت الصورة مطبوعة على صدره ... وذكر قول العقاد فى قصيدة مرقصة له :

ذهبيّ الشعر ساجى الـ طرف حلو اللفتات

فأما أنها ذهبية الشعر فنعم ! وأما أنها ساجية الطرف فلا .. فان فى نظرتها — حتى على هذا البعد — لقوة ، وإن كان لم ير أحلى من نظرتها ولا أسحر للب حين تبتسم ، ويشرق وجهها الواضح الصبيح ، وإنه ليراها الآن كما كانت يوم ضحكت وتثنت ، وكانت معها أختها — لابد أن تكون هذه أختها الكبرى فان فيها منها مشابه . والأرجح أنها متزوجة فانها لا تزور هذا البيت إلا غبّا — وتالله ما كان أحلاها يومئذ ! ! لقد كانت فى ثوب وردى اللون محبوك ، مفصل على قدها تفصيلاً يجلو محاسنها كلها ويعرض مفاتنها جميعا . . . وكان نحرها يضىء — وثدياها الناهدان يبدوان من تحت الثوب بارزىْ الحلمتين ... إيه ما أعظم فتنة هذا الجسم الغض الجديد الذى لم تبتذله السن ، ولم يرهله الزواج ... وكان شعرها الوحف الأثيث الناعم اللامع مرخى ... وكان الضوء المراق عليه يخيل للناظر أن فيه نجوماً زهرا ، أبهى وأسنى من نجوم السماء . . . وكان وجهها الدقيق المعارف . . . (يا ويلى من هذا الفم الذى لم يعرف الأصباغ ، وهو مع ذلك يبدو لى كأنما غذته الورود) متهللا . وقد لانت نظرتها القوية ، وفقدت

حدتها المألوفة ، واعتاضت منها الرقة ، وبدا خداها كأنهما غلالتا ورد . . . آه . . ماذا يقول هذا الشاعر مهيار ؟ ؟

آه على الرقة فى خدودها لو أنها تسرى إلى فؤادها !!

صحيح . . . . وليت من يدرى كيف فؤاد هذه الفتاة الرائعة الرقيقة الخدين اللينة النظرة حين يسرّها شىء . . . . . . أرقيق هو يا ترى كخديها ؟ ؟ أم . . . كلا ! ! لا يمكن أن يكون إلا رقيقاً ! . ولكن لماذا ؟ ؟ . على كل حال لا يزال أوان السؤال بعيداً . . أوه بعيداً جداً . . وما حاجتى إلى الاطمئنان من هذه الناحية ، ولا صلة هناك ، ولا كلام ، ولا حتى إشارة ؟ ؟ .

وقام يتمشى فى الغرفة الواسعة المكظوظة بالرفوف والمقاعد وغير ذلك ، وحدثته نفسه — وهى تعابثه — أن يركب الحياة عما يركبها به الشباب ، فضحك وقال . . لم يكن باقياً إلا هذا . . أمسح لها شعرى بكفى . . . . أو أعبث على مرأى منها بوردة أرجوانية « كتفاح خدها الارجوانى » كما يقول البحترى ! ! . أو أبعث إليها مع النسيم بقبلة . . . . أو هو هو هو ! ! .

وقهقه وهو يتخيل نفسه فاعلاً ما يفعل الشبان والاحداث . ثم أشعل سيجارة وارتمى على مقعد وثير وسأل نفسه : « أترانى أحتقر الشبان وأسخر مما يصنعون ؟ ؟ . وماذا أرى الحكمة والاتزان والوقار والاحتشام أجدانى ؟ . . أو يمكن أن يجدينى ؟ . . هه ؟ . ومع ذلك لم لا أفعل كما يفعل الشبان . . أترانى هرمت ! . كلا ! . فما جاوزت السابعة والثلاثين ، وإن كان الكثير من شعرى قد حال لونه ، وإنى لأقوى وأعظم جلدا على الحياة والكفاح من ابن عشرين . . . . ولكنها عادة الاحتشام — قبحها الله !

ولم يرقه أن يقطع نفسه حسرات هكذا ، فقال . . لماذا أرخى لنفسى الطِوَلَ . . . وهى ؟ ؟ أكبر الظن أنها لا ترانى ، ولا تعبأ بى إذا رأتنى ، ولا يرد ذكرى على بالها ، وإن كنت أراها أول ما يجرى بخاطرى فى الصباح ، وآخر شىء يجريه خاطرى بالليل .. أفلا يحسن أن أكبح نفسى عن هوى عقيم ؟؟ ولكن لماذا أدع العاطفة تستنفد نفسها . . لا مانع فيما أرى ، لو أن من الممكن أن تستنفد نفسها . . . وهيها يمكن أن تفعل ، فانى أخشى أن تورثنى حسرات كثيرة . . . ولهفات ثقيلة . . . الأرجح مع ذلك أن تعمق العاطفة مجراها فى النفس وإن كان لا مدد لها من المحبوب . فان فيها — بمجردها — للذة تترك المرء كالجمل حين يجتر ما فى جوفه ويعيد مضغه مرة وأخرى . . وهل قتل المجنون وأمثاله من صرعى الهوى إلا هذه اللذة التى كانوا يجدونها فى حبهم والتى كانت تغريهم بأن يجعلوا لها غذاء ومدداً من نفوسهم ؟ . . .

وابتسم وهو يقول . . لست أحب أن أكون أحد هؤلاء المجانين الذين أتلفهم الحب وتناهم العشق . . . فقد كانوا حقيقة مجانين ... ولكن ليتنى أعرف حيلة !! والبلاء أن حياة المجتمع ما زالت كما كانت ، وإن كان النساء قد سفرن ! ومن النادر جداً على الرغم من هذا السفور أن يتيسر التعارف فى مجتمعات مختلطة . إذن لهان الأمر وأمكن السعى

وقال وهو يضحك « لم يبق إلا السحر » ثم عبس ونهض وقال لنفسه إن التعبير بالسحر فيه تجوز كثير ، ولكن فى الوسع تغليب إرادة على إرادة ، وأداء رسالة من نفس إلى نفس أخرى .. أعنى أن الايحاء حقيقة ثابتة لا شك فيها — نعم لا يشك فيها إلا جاهل — وفى مقدورى ولا ريب أن أوحى إلى هذه الفتاة العاطفة التى تخامر نفسى ، وأن أبلّغها رسالة قلبى ، وأن أوقد فى صدرها ناراً كالتى تتسعر فى قلبى . . . أفعل كل ذلك بعينى . . . ألست قد أمرت مرة خادماً كان عندى وأمرته ألا يستيقظ إلا بعد صلاة الجمعة ؟؟. ألست قد جربت فعل نظارتى فى نساء كثيرات ؟. ألم تصح إحداهن وقد أطلت التحديق فى عينيها « حوّل عينك عنى ، فانى لا أطيق نظرتها وأحس أن رأسى يدور » ألم تصرخ إحدى قريباتى دون أن تحول عينها عنى ، لأنى كنت أحدق فى عينيها على غير قصد ؟ ؟ . فهذه قوة مجرّبة ... قوة نفسية لا شك فيها . . وما أظن إلا أنى قادر على أن أوحى اليها الحبَّ . . وكل شىء بعد ذلك يهون . . نعم إن بيننا لبعداً . . . ولكن ما قيمة هذا ؟ ؟ . إنها موجة نفسية أرسلها اليها ، لا شرارة قصيرة ... ولماذا يمكن إرسال موجة من آخر الدنيا ، ولا يسهل إرسالها مسافة ثلاثين أو أربعين متراً ؟ ؟

واقتنع بأن ذلك ميسور ، فانشرح صدره ، وأشرق وجهه ، واعتزم أن يجرى هذه التجربة

وسأبلغ القارىء ما يكون — إذا كان شىء

ابراهيم عبد القادر المازنى